الإسلام والابتسامة

• الابتسامة شعار ديني، وفعل نبوي، وتطبيق صحابي، ومطلب اجتماعي يوضح لنا أن الدين الإسلامي منبر لنشر الابتسامة وباباً لدخوله وبيتًا للتعايش فيه، فالابتسامة سمة من سمات الشخصية المسلمة.

الإسلام والابتسامة:

الابتسامة سمة من سمات المسلم، وقد جاءت الشريعة الإسلامية بمبدأ الابتسامة بوصفه أساسًا في بناء الشخصية المسلمة، وحكمها سنة يجب الاقتداء بصاحبها صلوات الله وسلامه عليه، قال ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة).

وتعدُّ الابتسامة وسيلة كبرى من وسائل الدعوة إلى الله، قال تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٥) سورة النحل.

وهي أساس في بناء العلاقات الأخوية، ورمز من رموز التسامح في ديننا الإسلامي، فسيرة سيدنا محمد ﷺ عطرة بالابتسام مع أهله وأصحابه وفي خطبه وتعاليمه القولية والفعلية.

قال رسول الله ﷺ: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق). رواه مسلم.

وقال ﷺ: (لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق) رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان.

حتى إن صحابة رسول الله لم يروا رسول الله ﷺ إلا والبسمة على محياه.

فعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: (ما حجبني النبي ﷺ، ولا رآني إلا تبسم في وجهي). رواه البخاري.

وقال ﷺ: (تبسمك في وجه أخيك صدقة).

وإن صحابة رسول الله قد أخذوا من رسولهم الابتسامة، واستنوا بسنته القولية والفعلية، فقد قيل لعمر رضي الله عنه: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان والله أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي.

وعن جابر بن سليم الْهُجَيْمِيُّ رضي الله عنه قال: قلت: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَة، فَعَلِّمْنَا شَيْئاً يَنْفَعُنَا اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى به. قَالَ: (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوف شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْه مُنْبَسِطٌ ...). رواه أحمد، وصححه الألباني.

وقوله ﷺ: (مُنْبَسِطٌ) أي: منطلق بالسرور، والانشراح، قال حبيب بن ثابت: (من حسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو مقبل عليه بوجهه).

قال الإمام الغزالي -رحمه الله-: (فيه -أي هذا الحديث- رد على كل عالم أو عابد عبس وجهه، وقطب جبينه كأنه مستقذر للناس، أو غضبان عليهم، أو منزه عنهم، ولا يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الخد حتى يصعر، ولا في الظهر حتى ينحني، ولا في الرقبة حتى تطاطأ، ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلب ،أما الذي تلقاه ببشر، ويلقاك بعبوس؛ يمُن عليك بعلمه؛ فلا أكثر الله في

المسلمين مثله، ولو كان الله يرضى بذلك ما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. (الشعراء: ٢١٥).

■ فالابتسامة شعار ديني، وفعل نبوي، وتطبيق صاحبي، ومطلب اجتماعي.

الابتسامة في حياة الرسول ﷺ:

لقد كانت حياة النبي ﷺ مليئة بالمواقف المؤلمة في بداياته وفي دعوته وهجرته وغزواته ومرضه، ومع هذا كله لم تفارقه الابتسامة، حتى مع أعدائه، فقد قال فضالة بن عمير الليثي: قدمت على النبي ﷺ عام الفتح، وهو يطوف بالكعبة، وكنت أريد قتله، فلما اقتربت من الرسول ﷺ قال لي: أفضالة؟ قلت: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث نفسك؟ قلت: لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال لي: استغفر الله، ثم وضع يده على صدري ، فو الله ما رفعها حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه. (الإصابة في معرفة الصحابة لابن رجب).

وفي حياته الأسرية كان باسمًا مع أهله وأصحابه، تقول عائشة رضي الله عنها: (ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكا، حتى أرى منه لهواته - وهي اللحمة الموجودة في أعلى الحنجرة إنما كان يتبسم) متفق عليه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ: (وكان جُلّ – أي معظم - ضحكه التبسّم، يفترّ عن مِثل حبّ الغمام – يعني بذلك بياض أسنانه).

وحتى في وقت غضبه وعتابه، لم تغب عنه الابتسامة وفي قصة المتخلفين عن غزوة تبوك دليل على ذلك يقول كعب ﷺ بعد أن ذكر اعتذار المنافقين وحلفهم الكاذب: فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وقد كان الرسول باسمًا حتى في مجلسه، فقد قال خارجة بن زيد: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه، وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم من غير جميل، كان ضحكه تبسمًا وكلامه فصلًا لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداءً به.

وكان يسمع أصحابه يتحدثون في أمور الجاهلية -وهم في المسجد- فيمر بهم، ويبتسم، حتى إن الابتسامة لم تفارق رسولنا الحبيب محمد ﷺ في آخر يوم من حياته، روى أنس بن مالك ﷺ: أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر يوم الإثنين وأبو بكر ﷺ يصلي بهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: (وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة، وأرخى الستر).

فقد عاش النبي مبتسمًا ومات مبتسمًا بعد أن وضع للابتسامة قاعدة نبوية ينطلق منها المسلم؛ ليسعد نفسه ومن حوله.

أحاديث في البسمة والابتسامة:

وهذه أحاديث وردت عن رسول الله ﷺ تبين أن الابتسامة أساس في علاقاته، وعنصر في تعاليمه وقاعدة في حياته:

١- عن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه يقول: (ما رآني رسول الله ﷺ منذ أسلمت إلا تبسم في وجهي). رواه البخاري.

٢- يقول جابر بن سمرة رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ: (كان لا يضحك إلا تبسمًا). رواه الحاكم.

٣- عن عبدالله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه: (ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ). رواه الترمذي.

٤- عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون، ويبتسم). رواه مسلم.

٥- عن عبدالله بن الحارث رضي الله عنه قال: (ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً). رواه الترمذي.

٦- (كان النبي ﷺ كالرجل من رجالكم، إلا أنه كان أكرم الناس، وألين الناس ضحّاكاً بسّاماً). مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا.

٧- قال ﷺ: (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة). رواه الترمذي

٨- قال ﷺ: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق). رواه مسلم.

٩- عن عائشة ﵂ قالت: (أصبحت أنا وحفصة صائمتين، فأهدي لنا طعام، فأكلنا منه، ودخل علينا النبي ﷺ فابتدرتني حفصة، فقالت: (يا رسول الله، أصبحنا صائمتين، فأهدي لنا طعام، فأكلنا منه، فتبسّم النبي ﷺ وقال: صوما يومًا مكانه). رواه البيهقي.

■ يقول الإمام ابن حجر تعليقًا على ذلك:

(والذي يظهر من مجموع الأحاديث أنه ﷺ كان لا يزيد في معظم أحواله عن التبسّم، وربما زاد على ذلك فضحك؛ والمكروه في ذلك إنما هو الإكثار من الضحك أو الإفراط ؛ لأنه يُذهب الوقار).

وقد جمع الإمام البخاري أحاديث كثيرة للرسول ﷺ في هذا المقام وجعلها في: (باب التبسم والضحك) وهذا دليل واضح على أن الابتسامة لم تفارق رسول الله، وأنه كان حريصاً على زرعها بين أصحابه وأفراد أمته من بعده.

وفي صحيح الإمام مسلم أحاديث كثيرة عن الابتسامة بوَّب لها الإمام النووي، فقال في كتاب الفضائل (باب تبسمه وحسن عشرته) وبوَّب الشيخ الغماري الأحاديث التي فيها (ضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه) في مؤلف سمّاه (شوارق الأنوار المنيفة بظهور النواجذ الشريفة)، كل هذا وغيره بيان لجوانب تبسمه ﷺ.

■ مواقف نبوية باسمة:

١- عن أنس ﵁ قال: (أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ فبينما هو يخطبنا يوم جمعة، إذ قام رجل، فقال: يا رسول الله

هلك الكراع هلك الشاء، فادعُ الله أن يسقينا فمد يديه ودعا، قال أنس: وإن السماء لمثل الزجاجة فهاجت ريح، ثم أنشأت سحابة ثم اجتمعت ثم أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم يزل المطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره، فقال يا رسول الله تهدمت البيوت فادعُ الله أن يحبسه، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: حوالينا ولا علينا، فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل). رواه أبوداود.

٢-عن صهيب رضي الله عنه قال: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر، فقال النبي ﷺ: ادنُ فكل، فأخذت آكل من التمر فقال النبي ﷺ: تأكل تمرًا وبك رمد، قال: فقلت: إني أمضغ من ناحية أخرى: فتبسم رسول الله ﷺ). رواه ابن ماجة.

٣-عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت فضحك ثم أمر له بعطاء). رواه البخاري.

٤-عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين وأبو بكر يصلي لهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك). رواه البخاري.

٥- عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: (كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين - في غزوة أحد - فقال لي النبي ﷺ: ارمِ فداك أبي وأمي، قال: فنزعت له بسهم له نصل، فأصبت جنبه، فسقط وانكشفت عورته، فضحك النبي ﷺ). رواه الطبراني في الكبير.

٦- عن عائشة ﷺ قالت: (خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدُن ، فقال للناس: تقدموا، فتقدموا، ثم قال لي: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقته، فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدنتُ ونسيتُ خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: تقدموا، فتقدموا، ثم قال: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول هذه بتلك). رواه أحمد.

الأنبياء والابتسامة:

أثبت الله سبحانه وتعالى في كتابه أن الابتسامة صفة من صفات أنبيائه الكرام، وفي قصة نبي الله سليمان مع النمل أكبر دليل على تبسم أنبياء الله، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. (سورة النمل آية ١٧-١٩)

قال البغوي في تفسير هذه الآية: (وقوله عز وجل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ قال الزجاج: أكثر ضحك الأنبياء التبسم، وقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ أي: متبسمًا. قيل: كان أوله التبسم وآخره الضحك.

وقوله ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ أي: وقد سمعه من ثلاثة أميال حملته إليه الريح، فحبس جنده حين أشرف على واديهم حتى دخلوا بيوتهم، وكان جنده ركبانًا ومشاة في هذا السير، قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجبا، لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك).

أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ سُلَيْمَان عليه السلام تبسمَ ضاحكًا من قولها هذا، ومما يدل على أن ضحك الأنبياء تبسم قول عائشة رضي الله عنها قالت: (ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا قط ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم).

ابتسامة الشهيد :

قال تعالى :﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٦٩-١٧١).

عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: (للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه). رواه الترمذي وابن ماجة.

وقد كان الصحابي أبوحذيفة بن عتبة بن ربيعة يلقب بالشهيد ذي الابتسامة، ويعدُّ أبو حذيفة رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم قبل دخول المسلمين دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر مع امرأته سهلة بنت سهيل ابن عمرو إلى أرض الحبشة، وولدت له هناك ابنه محمد بن أبي حذيفة، ثم قدم على الرسول في مكة، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد والغزوات كلها مع النبي وكان أبوحذيفة يتمنى أن يستشهد في سبيل الله، فظل يجاهد حتى توفي الرسول، وفي عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، كان أبوحذيفة في أول صفوف الجيش الإسلامي المتجه إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب، وتحقق لأبي حذيفة ما كان يتمناه من الشهادة في سبيل الله فوقع شهيدًا، وعلى وجهه ابتسامة لما رأى من منزلته عند ربه.

والشهيد يفارق الحياة بابتسامة الفرح لملاقاة ربه وابتسامة السعادة بنعيم الجنة.

فالابتسامة لا تختص بالأحياء فقط، فالشهداء يبتسمون بعد موتهم ومن شاهد صور الشهداء سيعلم سر تلك الابتسامة على شفاههم (جعلنا الله وإياكم من الشهداء).

الابتسامة ودخول الإسلام:

إن للابتسامة سرًّا عظيمًا في كسب القلوب الغافلة، وببسمات مسلمة صادقة تتصدق بها على غير المسلم قد تحصل على صدقة خير لك من حمر النعم، قال ﷺ: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم). رواه مسلم.

ومن القصص الدالة على فضل الابتسامة في نشر الإسلام:

القصة التي يرويها الشيخ نبيل العوضي عن أحد الدعاة يقول: كنت في أمريكا ألقي إحدى المحاضرات، وفي منتصف المحاضرة قام أحد الناس، وقطع عليّ حديثي، وقال: يا شيخ، لقِّن فلانًا الشهادتين، ويشير إلى شخص أمريكي بجواره، فقلت: الله أكبر، فاقترب الأمريكي مني أمام الناس، فقلت له: ما الذي حبَّبك في الإسلام، وأردت أن تدخله؟ فقال: أنا أملك ثروة هائلة، وعندي شركات وأموال، ولكني لم أشعر بالسعادة يومًا من الأيام، وكان عندي موظف هندي مسلم يعمل في شركتي، وكان راتبه قليلًا، وكلما دخلت عليه رأيته مبتسمًا، وأنا صاحب الملايين لم أبتسم يومًا من الأيام، قلت في نفسي: أنا عندي الأموال وصاحب الشركة، والموظف الفقير يبتسم وأنا لا أبتسم، فجئته يومًا من الأيام، فقلت له: أريد الجلوس معك، وسألته عن ابتسامته الدائمة؟ فقال لي: لأنني مسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، قلت له: هل يعني هذا أن المسلم طوال أيامه سعيد؟ قال: نعم، قلت: كيف ذلك؟ قال: لأننا سمعنا حديثًا عن النبي ﷺ يقول فيه:

(عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له)، وأمورنا كلها بين السراء والضراء، أما الضراء فهي صبر لله، وأما السراء فهي شكر لله، حياتنا كلها سعادة في سعادة، قلت له: أريد أن أدخل في هذا الدين، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ويعود العوضي لحديث الشيخ الداعية قائلًا على لسانه: يقول الشيخ: قلت لهذا الأمريكي أمام الناس أشهد الشهادتين، فلقنته وقال أمام الملأ: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) ثم انفجر يبكي أمام الناس، فجاء من يريدون التخفيف عنه، فقلت لهم: دعوه يبكي، ولما انتهى من البكاء، قلت له: ما الذي أبكاك؟ قال: والله دخل في صدري فرح لم أشعر به منذ سنوات.